البَابُ الثَّالِثُ والعِشْرُونَ

فِي الْفَرْقِ بَيْنَ الحُسْنِ والوضَاءَة والبَهْجَة والطَّهَارة والنَّظَافَة، وما يُخالفُ ذلكَ من القُبْحِ والسَّمَاجة وغَيْرِ ذلكَ

«الفرق» بين الحُسْنِ والوضَاءَة أن الوضَاءَةَ تكونُ في الصورة فقط لأنَّها تتضمَّنُ معنى النظافة، يقال: غلافٌ وضيءٌ إذا كان حَسنًا نظيفًا ومنه قيل الوضوء لأنه نظافة ووضوء الإنسانِ وهو وضيءٌ ووضَاء كما تقول رجلٌ قراء وقد يكون حسنًا ليس بنظيف، والحسن أيضًا يستعمل في الأفْعَالِ والأخْلَاق ولا تستعملُ الوضَاءةُ إلا في الوضوء، والحسن على وجهين حسن في التدبير وهو من صفةِ الأفعال والحسن في المنظر على السماع يقال: صورةٌ حسنةٌ وصَوْتٌ حَسَنٌ.

«الفرق» بين الحُسْن والقَسَامة أن القَسَامَةَ حَسنٌ يشتمل على تقاسيم الوَجْه والقسم المستوي أبعاضُهُ في الحسن، والحسنُ يكون في الجملة والتفصيل والحُسْنُ أيضًا يكون في الأفعال والأخْلاقِ، والقسامة لا تكون إلا في الصُّورِ.

«الفرق» بين الحُسن والوَسَامةِ أن الوَسَامةَ هي الحسنُ الذي يظهر للناظرِ ويتزايد عند التوسُّم هو التأمُّل يقال توسَّمْتهُ إذا تأملته وهو على حسب ما قال الشاعر:

يَـــزِيـــدُكَ وَجْـــهَـــهُ حُـــسْـــنًـــا إِذَا مَـــا زِدْتَـــهُ نَـــظَـــرَا

والوَسامةُ أبْلغُ من الحُسْن وذلك أنك إذا كرَّرْتَ النظر في الشيء الحسن وأكثرت التوسُّم له نقص حسنه عندك، والوسيمُ هو الذي تزايد حسنه على تكرير النظر.

«الفرق» بين الحُسْن والبَهْجَة أن البَهْجَةَ حُسْنٌ يفرح به القلبُ، وأصْلُ البهجة السرورُ ورجلٌ بَهِجٌ وبَهيجٌ: مسرورٌ، وابتهجَ إذا سُرَّ ثم سُمِّي الحسن الذي يبهج القلب بهجةً، وقد يسمَّى الشيء باسم سببه، والبهجةُ عند الخليل حُسنُ لون الشيء ونضارتُه، قال ويقال: رجلٌ بَهِجٌ أي مُبْتَهِجٌ بأمر يسرُّه فأشار إلى ما قلناه.

«الفرق» بين الحُسْنِ والصَّبَاحة أن الصَّبَاحَةُ إشراقُ الوجْه وصفاءُ بشْرتِهِ مأخوذٌ من الصُّبح وهو بريقُ الحديد وغيره وقيل للصُّبْحِ صُبْح لبريقه، وأمَّا الملاحَةُ فهي أن يكونَ الموصوفُ بها حُلْوًا مقبول الجملة وإن لمْ يكُنْ حسنًا في التفصيل، قال العربُ: الملاحةُ في الفم والحلاوةُ في العينين والجمالُ في الأنفِ والظرْفُ في اللسان، ولهذا قال الحسن: إذا كان اللصُّ ظريفًا لم يقطعْ يريد أنه يدافعُ عنه نفسه بحلاوة لسانه وبحُسْن منطقِه، والمشهورُ في الملاحة هو الذي ذكرته.

«الفرق» بين الحُسْنِ والجَمال أنَّ الجمالَ هو ما يشتهر ويرتفعُ به الإنسانُ من الأفعال والأخْلَاق ومن كثرة المالِ والجسم، وليس هو من الحسن في شيءٍ ألا تَرى أنه يُقال لك في

هذا الأمْر جمالٌ ولا يقال لك فيه حُسْنٌ، وفي القرآن: ﴿ وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ ﴾ [النحل:٦] يعني الخيل والإبل. والحسن في الأصل الصورة ثم استعمل في الأفعال والأخلاق، والجمالُ في الأصل للأفعال والأخلاق والأحْوال الظاهرة ثم اسْتُعمِل في الصور، وأصلُ الجمالِ في العربية العِظَم ومنه قيل الجملة لأنها أعْظَمُ من التفاريق والجملُ الحبلُ الغليظُ والجمل سمّي جَمَلًا لعظم خلقته، ومنه قيل للشَّحْم المذاب جميل لعِظَم نَفْعِه.

«الفرق» بين الجَمال والنُّبل أنَّ النُّبْلَ هو ما يرتفع به الإنسان من الرواء ومن المنظر ومن الأخلاق والأفعال ومما يختص به من ذلك في نفسه دون ما يضاف، يقال: رجلٌ نبيلٌ في فعله ومنظرِه، وفرسٌ نبيلٌ في حسنه وتمامه، والجمال يكون في ذلك وفي المال وفي العشيرة والأحْوال الظاهرة فهو أعمُّ من النُّبْل، ألَا ترى أنه يقال لك في المال والعشيرة جَمالٌ ولا يقال لك في المال نُبْلٌ ولا هو نَبيلٌ في ماله، والجمال أيضًا يستعملُ في موضع الحسن فيقال وجه جميل كما يقال وجهٌ حَسَنٌ ولا يقال نبيلٌ بهذا المعنى، ويجوزُ أن يكون معنى قولهم وجْهٌ جميلٌ أنه يجري فيه السمن ويكون اشتاقه من الجميل وهو الشَّحْمُ المذَابُ.

«الفرق» بين الجَمالِ والبَهاء أن البَهاء جهارةُ المنظر يقال: رجلٌ بهيٌّ إذا كان مجهرَ المنْظَر وليس هو في شيء من الحُسْنِ والجمال، قال ابنُ دُرَيْد: بَهِي يَبهى بَهاءً من النبل، وقال الزجاجُ من الحسن، والذي قال ابن دريد: ألا ترى أنه يقال شيخ بَهِيٌّ ولا يقال: غلامٌ بَهِيٌّ ويقال: بهائه بالتمر إذا أنست به واقة بَهاء إذا أنست بالحالب.

«الفرق» بين الجَمالِ والسر[1] أن السرَّ وهو الجودة، والسريُّ من كل شيء الجيد منه، يقال طعام سَرِيٌّ وفرس سَرِيٌّ وكل ما فضل جنسه فهو سَرِيٌّ وسَرَاةُ القومِ وجوههم لفضلهم عليهم ولا يوصفَ الله تعالى بالسر وكما لا يوصف بالجودة والفضل.

«الفرق» بين الكَمال والتَّمام أنْ قولَنا كمالٌ اسمٌ لاجتماع أبْعاضِ الموصوف به، ولهذا قال المتكلمون: العقلُ كمالُ علوم ضروريات يميز بها القبيح من الحسن يريدون اجتماع علوم، ولا يقال: تمامُ علوم لأن التَّمام اسمٌ للجُزْءِ والبَعْضِ الذي يتم به الموصوف بأنه تامٌ، ولهذا قال أصحاب النَّظْم: القَافيةُ تمامُ البيت ولا يقال كمالُ البيتِ ويقولون: البيتُ بكماله أي باجتماعه والبيت بتمامِهِ أي بقافيته، ويقال: هذا تمامُ حقِّكَ للبعض الذي يتمُّ به الحق ولا يقال كمالُ حَقِّكَ فإن قيل: لم قُلْتَ إنَّ مَعْنَى قول المتكلمين كمالُ علوم اجتماع علوم؟ قُلنا لا اختلاف بينهم في ذلك والذي يوضحه أن العقلَ المدودَ بأنه كمال علومَ هو هذه الجملة واجتماعها ولهذا لا يوصفُ المراهقُ بأنه عاقلٌ وإن حصَّل بعض هذه العلوم أو أكثرها له وإنما يقال له عاقلٌ إذا اجتمعت له.

(١) سَرُوَ سَرْوًا: شرُفَ، وسَخَا في مروءة، فهو سريٌّ. والجمع أسْرِيَاءُ.

«الفرق» بين البِشْرِ والبَشاشَةِ أن البِشْرَ أول ما يظهر من السُّرورِ بلقى من يلقاك، ومنه البِشارةُ وهي أول ما يصل إليك من الخبر السَّارِّ فإذا وصل إليك ثانيًا لم يسمَّ بشارة ولهذا قالت الفقهاءُ: إن من قال من بشَّرني بمولودٍ من عبيدي فهو حرٌّ أنه يعتق أول من يخبره بذلك والبعية هي الخبر السَّارُّ وصل أوّلًا أو أخيرًا وفي المثل البِشْرُ علمٌ من أعلام النجح. والهَشَاشَةُ هي الخفَّة للمعروف وقد هَشِشْتُ يا هذا بكسر الشين وهو من قولك شيءٌ هَشٌّ إذا كان سهلَ المتناول فإذا كان الرجل سهل العطاء قيل هو هَشٌّ بين الهشاشة والبَشَاشَةُ إظهار السرورِ لمن تلقاه وسواء كان أولًا أو أخيرًا.

«الفرق» بين ذلك وبين طلاقة الوجْهِ أن طلاقَة الوجْهِ خلافُ العَبُوسِ، والعَبُوسُ تكره الوجه عند اللقاء والسؤال وطلاقته انحلال ذلك عنه وقد طَلِق يطلق طَلاقةً كما قيل صَبَح صَبَاحةً ومَلح مَلَاحَةً، وأصل الكلمة السهولة والانحلال، وكل شيء تطلقه من حبس أو تحله من وثاق فينصرف كيف شاء أو تحلله بعد تحريمه أو تبيحه بعد المنع، تقول: أطلقته وهو طلق وطليق، ومنه طلقت المرأة لأن ذلك تخليصٌ من الحمل.

«الفرق» بين الطَّهارةِ والنَّظافةِ أن الطَّهارةَ تكون في الخِلْقةِ والمعاني لأنها تقتضي منافاة العيب يقال: فلانٌ طاهرُ الأخلاق وتقول المؤمنُ طاهرٌ مُطهَّرٌ يعني أنه جامع للخصال المحمودة، والكافرُ خبيثٌ لأنه خلافُ المؤمن، وتقولُ: هو طاهرُ الثوبِ والجسدِ. والنظافةُ لا تكون إلا في الخلق واللبس وهي تفيدُ منافاةَ الدَّنَسِ، ولا تستعمل في المعاني وتقول هو نظيفُ الصورة أي حَسنُها ونظيفُ الثوب والجسد ولا تقول نظيفُ الخلْقِ.

«الفرق» بين القُبْحِ والسَّماجَةِ أن السَّماجَةَ فعل العيب، والشاهد قول الهذلي:

* فَمِنْهُمْ صَالِحٌ وسَمِيجُ *

وجعل السماجة نقيضَ الصلاح، والصلاح فعل، فكذلك ينبغي أن تكونَ السَّماجَةُ فلو كانت السماجةُ قُبْحَ الوجه لم يحسن أن يقول ذلك، ألا ترى أنه لا يحسن أن تقولَ: فمنهم صالحٌ وقبيحُ الوجه؟ وقال ابنُ دريد: ربما قيل لمن جاء بعيب سمِجًا، ثم اتَّسع في السماجة فاستعمل مكان قُبْح الصُّورَةِ فقيل وَجْهٌ سميجٌ وسَمِجٌ كما قيل قبيح كأنه جاء بعيب لأنَّ القُبْحَ عَيْبٌ.

«الفرق» بين القبيح والوَحِشِ أن الوَحش[1]: الهزيل وقد توحَّش الرجل إذا هَزُلَ وتوحَّش أيضًا إذا تجوَّع فسُمِّي القبيح المنظر باسم الهزيل لأن الهَزيلَ قبيحٌ، ويجوز أن يقال إن الوحش

(١) الوَحِش: وحِشَ فلانٌ للشيء وحْشَةً أي شعرَ بوحْشةٍ له، وبمعنى جاع أيضا، يقال: باتَ وحِشا.

هو المتناهي في القباحة حتى يتوحش الناظر من النظر إليه ويكون الوحش على هذا التأويل بمعنى الموحش وتوحش الرجل أيضًا إذا تعرى، ويجوز أن يكون الوَحِش العاري من الحسن وهو شبيه بما تقدم من ذكر الهُزَالِ.

«الفرق» بين السُّرورِ والاسْتِبْشَارِ أن الاسْتِبْشَارَ هو السرورُ بالبِشَارَةِ والاسْتِفْعَال للطلب والمستبشر بمنزلة من طلب السرور في البشارة فوجده، وأصل البشرة من ذلك لظهور السرور في بشرة الوجه.

«الفرق» بين السُّرورِ والفَرح أن السُّرورَ لا يكون إلَّا بما هو نَفْعٌ أو لذَّةٌ على الحقيقة، وقد يكون الفرح بما ليس بنفع ولا لذة كفرح الصبي بالرقْصِ والعدْوِ والسباحة وغير ذلك مما يتعبه ويؤذيه ولا يسمى ذلك سُرورًا، ألَا ترى أنكَ تقولُ الصبيان يفرحون بالسِّباحَةِ والرَّقْص، ولا تقولُ يسرون بذلك، ونقيضُ السُّرورِ الحزن، ومعلومٌ أن الحزن يكون بالمرازي فينبغي أن يكون السُّرورِ بالفوائد وما يجري مجراها من الملاذ، ونقيضُ الفرح الغَمُّ وقد يغتم الإنسان بضرر يتوهَّمه من غير أن يكون له حقيقة وكذلك يفرح بما لا حقيقة له كفرح الحالِمِ بالمنى وغيره، ولا يجوزُ أن يحزنَ ويسر بما لا حقيقة له، وصيغة الفرح والسرور في العربية تُنبئ عَمَّا قلناه فيهما وهو أن الفرحَ فعل مصدر فعل فعلا وفعل المطاوعة والانفعال، فكأنَّه شيءٌ يحدث في النفس من غير سبب يوجبهُ، والسرورُ اسمٌ وضع موضع المصدر في قولك سُرَّ سرورًا وأصله سرَّا وهو فعل يتعدى ويقتضي فاعلًا فهو مخالفٌ للفرح من كل وجه، ويقال: فرِح إذا جعلته كالنسبة وفَارِحٌ إذا بنيته على الفعل، قال الفراء: الفَرِحُ الذي يفرح في وقته والفارِحُ الذي يفرح فيما يستقبل مثل طمِعٌ وطَامِعٌ.

«الفرق» بين السُّرورِ والجَذِلِ[1] أن الجَذِلَ هو السَرورُ الثابت مأخوذٌ من قولك: جَاذِل أي منتصبٌ ثابتٌ لا يبرح مكانه، وجِذْلُ كل شيء أصله، ورجل جَذْلَان ولا يقال جَاذِل إلا ضرورةً.

«الفرق» بين السُّرورِ والحُبورِ أن الحبُورَ هي النعمة الحسنة من قولك حبرت الثوب إذا حسنته وفسر قوله تعالى: ﴿أَنتُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ تُحْبَرُونَ﴾ [الزخرف:٧٠] أي تنعمون وإنما يسمَّى السرورُ حُبورًا لأنه يكون مع النعمة الحسنة، وقيل في المثل: «ما من دار مُلئت حبرة الا ستملأ عبرة» قالوا: الحبرة ههنا السرور والعبرة الحزن، وقال العجاج.

(١) الجذل بفتح الجيم وكسر الذال: جَذِلَ جذلا: فرح، فهو جذل وهي جَذْلى

الحمدُ لله الَّذِي أعْطَى الحَبر هُوَ إلى الحقِّ إن المَوْلَى شَكَر

وقال الفراء: الحبورَ: الكرامةُ، وعندنا أن هذا على جهة الاستعارة، والأصل فيه النعمة الحسنة ومنه قولهم للعالم: حَبْرٌ لأنه حبر بأحسن الأخلاق، والمِدادُ حبر لأنه يحسن الكتب.

«الفرق» بين الهَمِّ والغَمِّ أن الهَمَّ هو الفكر في إزالة المكروه واجتلاب المحبوب، وليس هو من الغمِّ في شيء، ألَا ترى أنك تقول لصاحبك اهتم في حاجتي ولا يصح أن تقول اغْتم بها؟! والغَمُّ معنى ينقبض القلب معه ويكون لوقوع ضَرر قد كان أو توقُّع ضَرر يكُون أو يتوهمه وقد سُمِّي الحزن الذي تطول مدته حتى يذيب البدن هما، واشتقاقه من قولك إنهم الشَّحْمُ إذا ذابَ وهمه إذا أذَابَهَ.

«الفرق» بين الحُزْنِ والكَرْبِ أن الحُزن تكاثُفُ الغَمِّ وغلظه مأخوذ من الأرض الحزْنِ وهو الغليظُ الصلب، والكَرْبُ: تكاثف الغمِّ مع ضيق الصَّدْرِ ولهذا يقال لليوم الحار يَوْمُ كَرْبٍ أي كَرْبَ من فيه وقد كَرُبَ الرجل وهو مكْرُوبٌ وقد كربه إذا غمَّه وضيق صدره.

«الفرق» بين الحُزْنِ والكَآبَةِ أثر الحزن البادي على الوجه، ومن ثَمَّ يقال عليه كآبةٌ ولا يقال علاه حزن أو كرب لأن الحزن لا يرى ولكن دلالته على الوجه وتلك الدلالات تُسمَّى كآبة والشاهد قول النابغة:

إذَا حَلَّ بالأرْضِ البَرِيَّةِ أصْبَحَتْ كَئِيبَةً وجْهَ غَبها غيرُ طَائِلِ

فجعل الكآبة في الوجه.

«الفرق» بين الغَمِّ والحَسْرة والأسف أن الحسْرة غمٌّ يتجدد لفوت فائدة فليس كلُّ غمٌ حَسْرةً، والأسف حسرة معها غضب أو غيظ والأسَف: الغضبانُ المتلهف على الشيء ثم كثر ذلك حتى جاء في معنى الغضب وحده في قوله تعالى: ﴿ فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا ٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ ﴾ [الزخرف:٥٥] أي أغضبونا، واستعمال الغضب في صفات الله تعالى مجاز وحقيقته إيجاب العقاب للمغضوب عليه.

«الفرق» بين الحُزْن والبَثِّ أن قولنا الحزن يفيد غلظ الهم، وقولنا البَثُّ يفيد أنه ينبث ولا ينكتم من قولك أبْثثتهُ ما عندي وبَثَثْتهُ إذا أعلمته إياه، وأصل الكلمة كثرة التفريق ومنه قوله تعالى: ﴿ كَٱلْفَرَاشِ ٱلْمَبْثُوثِ ﴾[القارعة:٤] وقال تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَشْكُواْ بَثِّى وَحُزْنِىٓ إِلَى ٱللَّهِ ﴾[يوسف:٨٦] فعطف البث على الحزن لما بينهما من الفرق في المعنى وهو ما ذكرناه.